

الفصل الثالث بنو إسرائيل في القرآن الكريم

من هم بنو إسرائيل ؟

بنو إسرائيل هم الشعب المنحدر من نسل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، فقد رُزق يعقوب عليه السلام باثني عشر ابنا ، منهم تفرعت قبائل بني إسرائيل ، وإسرائيل كلمة عبرية بمعنى عبد الله وهو اسم ليعقوب عليه السلام ، وقد ذكر الله أسباط بني إسرائيل وهم أبناء يعقوب عليه السلام في أكثر من آية من كتاب الله عز وجل ، منها قوله تعالى :

{ وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا } (الأعراف: ١٦٠)

وقوله تعالى : { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } (البقرة: ١٣٦)

ولم يكن ليعقوب عليه السلام وطن ثابت فقد كان يعيش وأهل بيته حياة البدو الرحل يضربون خيامهم حيثما وجد الماء و الكأ ، وقد أشار القرآن إلى حياتهم هذه في قوله سبحانه على لسان يوسف عليه السلام : { وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ } (يوسف: ١٠٠)

بنو إسرائيل في مصر

وقص القرآن الكريم قصة سيدنا يوسف عليه السلام بالتفصيل وهي لا تختلف كثيرا عما جاء في التوراة .

وانتهى الحال بيوسف عليه السلام بأن أصبح المتصرف في شئون مصر بعدما رأى ملك مصر دلائل نبوته ، ومبلغ علمه ، ومدى أمانته .

{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ {٥٤} قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ {٥٥} وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ { يوسف : ٥٤ - ٥٦ })

وذكر القرآن الكريم قصة دخول بني إسرائيل مصر في زمن يوسف عليه السلام .

{ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ { يوسف : ٩٩ - ١٠٠ } .

وقد عاش بنو إسرائيل في مصر في زمن يوسف عليه السلام حياة كريمة .

{ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ {٥٧} وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ {٥٨} كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ { الشعراء : ٥٧ - ٥٩ })

لقد عاش بنو إسرائيل في مصر حياة منعمة ، لا أثر فيها لشقاء أو عذاب قبل أن ينقلب عليهم فرعون مصر ، ويضطروا للخروج منها .

{ كَمْ تَرَكَوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ {٢٥} وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ {٢٦} وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَانْكَبِينَ {٢٧} كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ {٢٨} فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ { الدخان : ٢٥ - ٢٨ })

تصور لنا الآيات النعيم الذي كان بنو إسرائيل فيه يرفلون . . جنات . وعيون . وزروع . ومكان مرموق ، ينالون فيه الاحترام والتكريم . ونعمة يستلذونها ويطعمونها ويعيشون فيها مسرورين محبوبين .

وبعد موت يوسف ، تسلط عليهم فرعون وأذاقهم سوء العذاب ، ولم يذكر القرآن الكريم سبب اضطهاد فرعون لبني إسرائيل ، فبعث الله موسى ليخرج بني إسرائيل من مصر هرباً من بطش فرعون وجبروته .

قصة سيدنا موسى في القرآن الكريم

وذكر القرآن الكريم قصة سيدنا موسى : ميلاده ، وإلقاء أمه به في النهر داخل تابوت عندما خافت عليه من فرعون - الذي كان يذبح أبناء بني إسرائيل - وترية فرعون له . فقال تعالى :

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَلَأْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ {٧} فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ {٨} وَقَالَتْ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قَرَّتْ عَيْنٌ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {٩} وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ {١٠} وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {١١} وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ {١٢} فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } (القصص : ٧ - ١٣)

وعندما شب موسى واستوى عرف باضطهاد فرعون لبني إسرائيل وذات يوم استغاث إسرائيلي بموسى في قتاله مع مصري فضرب موسى المصري بقبضة يده لدفعه عن الإسرائيلي فمات المصري ، ولم يكن يقصد قتله ، وعلم موسى أن ملاً فرعون يدبرون لقتله فهرب إلى مدين حيث عمل راعياً لدى شيخ صالح هناك قيل أنه نبي الله شعيب عليه السلام الذي زوجه إحدى ابنتيه نظير أن يعمل عنده ثماني سنوات ، وزاد موسى عليها سنتين تفضلاً منه ، ثم أخذ أهله وأراد العودة بهم إلى مصر وهو في سنياء اختاره الله تعالى نبياً .

{ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ {١٤} وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ {١٥} قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ {١٦} قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ {١٧} فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ {١٨} فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ {١٩} وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ {٢٠} فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {٢١} وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ {٢٢} وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ {٢٣} فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ

فَقِيرٌ {٢٤} فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {٢٥} قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ {٢٦} قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّاجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ {٢٧} قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ {٢٨} فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ {٢٩} فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ { (القصص: ١٤ - ٣٠) }

وبعد أن أوحى الله تعالى لموسى في سينا بالرسالة أمره أن يذهب هو وأخوه هارون إلى فرعون لدعوته لعبادة الله وحده ولخلاص بني إسرائيل ، فأعرض عنهما فرعون وناصرهم العدا .

{ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى {٩} إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى {١٠} فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى {١١} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى {١٢} وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى {١٣} إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي {١٤} إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى {١٥} فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى {١٦} وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى {١٧} قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى {١٨} قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى {١٩} فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى {٢٠} قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى {٢١} وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى {٢٢} لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى {٢٣} أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى {٢٤} قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي {٢٥} وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي {٢٦} وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي {٢٧} يَفْقَهُوا قَوْلِي {٢٨} وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي {٢٩} هَارُونَ أَخِي {٣٠} اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي {٣١} وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي {٣٢} كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا {٣٣} وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا {٣٤} إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا {٣٥} قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى {٣٦} وَلَقَدْ مَنَّاْ عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى { (طه : ١٣ - ٣٧) }

موسى وفرعون

وبقصر لنا القرآن الكريم الحوار الذي دار بين موسى وفرعون :

{ فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ {١٦} أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ {١٧} قَالَ أَلَمْ تُزَكِّهِمْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ {١٨} وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ {١٩} فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ {٢٠} فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ {٢١} وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ {٢٢} قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ {٢٣} قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ {٢٤} قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ {٢٥} قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ {٢٦} قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ {٢٧} قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ {٢٨} قَالَ لَنْ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ {٢٩} قَالَ أَوْلَوْ جِنَّتِكَ بَشِيءٌ مُبِينٌ {٣٠} قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ {٣١} فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ {٣٢} وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ {٣٣} قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ {٣٤} يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ {٣٥} قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ {٣٦} يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ {٣٧} فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ {٣٨} وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ {٣٩} لَعَلَّنَا نَنْبَغُ السَّحَرَةُ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ {٤٠} فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ {٤١} قَالَ نَعَمْ وَأَنْتُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ {٤٢} قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُثْقَنُونَ {٤٣} فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ {٤٤} فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ {٤٥} فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ {٤٦} قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ {٤٧} رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ {٤٨} قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ {٤٩} قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ {٥٠} }

(الشعراء : ١٦ - ٥٠)

وطلب موسى من فرعون أن يعتق بني إسرائيل ليخرجوا من حياة العبودية والقهري إلى

الأرض المقدسة ، ولكن فرعون أبى فضربه الله بألوان شتى من العذاب .

{ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ {١٣٣} وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ {١٣٤} فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغَوْهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ {١٣٥} }

(الأعراف: ١٣٣- ١٣٥)

وأخيرا سمح فرعون - بعدما رأى العذاب - بخروج بني إسرائيل الذين احتالوا على المصريين فأخذوا حليهم ثم هربوا وعندما علم فرعون بذلك أعد جيشا لينتقم منهم .
لكن الله نجى موسى وقومه وأغرق فرعون وجنوده .

{ فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ {٦٠} فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ {٦١} قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ {٦٢} فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ {٦٣} وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ {٦٤} وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ {٦٥} ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ {٦٦} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ {الشعراء : ٦٠ - ٦٧}

فترة التيه

عندما ذهب موسى لميقات ربه ليأتي لبني إسرائيل بالتوراة استغل بنو إسرائيل غيابه وعبدوا العجل رغم أنهم كانوا حديثي عهد بمعجزة كبرى وهي شق البحر .

{ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ {٥٠} وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ {البقرة : ٥٠ ، ٥١}

وعندما علم موسى بعبادتهم للعجل ألقى الألواح وعاتب أخاه هارون عتابا شديدا .

{ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْلَيْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأُلُوحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ اسْتَغْفِرْنِي مِنْ رَبِّكَ وَأَكْبَدُوا يُقْتُلُونَنِي فَلَا تَشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءُ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {١٥٠} قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ {١٥١} إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ {١٥٢} وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ { (الأعراف : ١٥١ - ١٥٣)}

وبرر بنو إسرائيل عبادتهم للعجل بادعاء أنهم أرادوا التطهر من حلي المصريين التي سرقوها منهن باللقائها في النار ، وأن السامري هو الذي صنع لهم من الذهب المذاب عجلا وأمرهم بعبادته ، وقد استبطئوا موسى فوقعوا في عبادة العجل !!

{ فَارْجِعْ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَقْطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي {٨٦} قَالُوا مَا

أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ { طه : ٨٦ ، ٨٧)

قال بنو إسرائيل لموسى : ما أخلفنا موعده بملكنا ، فلقد كان الأمر أكبر من طاقتنا ! { ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم قذفناها } . . وقد حملوا معهم أكداً من حلي المصريين كانت عارية عند نسائهم فحملنها معهن . فهم يشيرون إلى هذه الأحمال . ويقولون : لقد قذفناها تخلصاً منها لأنها حرام . فأخذهم السامري فصاغ منها عجلاً .

ومن رحمة الله تعالى أن عفا عنهم ، وغفر لهم عبادتهم العجل لعلمهم يشكرون .
{ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (البقرة : ٥٢)

لكنهم لم يشكروا الله على عظيم نعمه عليهم ، وطلبوا ما ليس لهم بحق طلبوا أن يروا الله جهرة ليؤمنوا مع أن رؤيتهم لله تتناقض مع الإيمان به فالإيمان يكون بالغيب ، وعاقبهم الله بأن أمتهم جميعاً بالصاعقة ، ثم عفا عنهم وأحياهم لعلمهم يشكرون .

{ وَإِذْ قُلْنَا يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْنَاكَ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } {٥٥} ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِّن بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (البقرة : ٥٥ ، ٥٦)

وأنعم الله عليهم بالسحاب يقيهم حرارة الشمس ، وأنزل عليهم من طيباته : المن والسلوى ، وفجر لهم عيون الماء .

{ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } (البقرة : ٥٧)

{ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } (البقرة : ٦٠)

ومع ذلك لم يشكروا الله على جزيل نعمه بل اعترضوا على طيبات الله واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير فكان جزاؤهم أن كتب الله عليهم الذل والمسكنة وباعوا بغضب من الله .

{ وَإِذْ قُلْنَا يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثَبِّتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاوُوا بِغَضَبِ

مَنْ اللَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ { (البقرة : ٦١)

وأخذ الله تعالى عليهم الميثاق بعبادته تعالى وحده ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم ، والإحسان لليتامى والمساكين ، ومعاملة كافة الناس بالحسنى ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وعدم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، لكنهم نكثوا عهد الله وعصوا أوامره ، فسفكوا الدماء ، وطردوا الأبرياء من ديارهم وتظاهروا عليهم بالإثم والعدوان فحكم الله تعالى على من فعل ذلك منهم بالخزي في الحياة الدنيا ، وبأشد العذاب يوم القيامة .

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ {٨٣} وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ {٨٤} ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّنْ دِيَارِهِمْ تَتَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتِوكُمْ أُسَارَىٰ تَقَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِّنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ {٨٥} أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْصَرُونَ { (البقرة : ٨٣ - ٨٦)

ومع ما في هذا الميثاق العظيم من تعاليم إلهية جليلة رفضوه فهددهم الله بجبل طور لقبوله ، لكنهم سمعوا مكرهين وعصوا كافرين .

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَايَا مَّرْكُم بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ { (البقرة : ٩٣)

طلب موسى من بني إسرائيل دخول البلاد المقدسة التي فرض الله عليهم دخولها لكنهم جبنوا عن محاربة الفلسطينيين ، واشتروا لدخولها خروج أهلها منها !!

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ {٢٠} يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ {٢١} قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ {٢٢} قَالَ رَبُّنَا

مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {٢٣} قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ {٢٤} قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافَرِّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ {٢٥} قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ { (المائدة : ٢٠ - ٢٦) }

إن جبلة يهود لتبدو هنا على حقيقتها ، مكشوفة بلا حجاب ولو رقيق من التجميل . ذلك أنهم أمام الخطر ؛ فلا بقية إذن من تجميل ؛ ولا محاولة إذن للتشجع ، ولا مجال كذلك للتمحل . إن الخطر مائل قريب ؛ ومن ثم لا يعصمهم منه حتى وعد الله لهم بأنهم أصحاب هذه الأرض ، وأن الله قد كتبها لهم - فهم يريدونه نصراً رخيصاً ، لا ثمن له ، ولا جهد فيه . نصراً مريحاً يتنزل عليهم تنزل المن والسلوى !

{ فاذهب أنت وربك فقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } هكذا في وقاحة العاجز ، الذي لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مد اللسان ! أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان !

{ فاذهب أنت وربك } ! . فليس بربهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال !

{ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } . لا نريد ملكاً ، ولا نريد عزاً ، ولا نريد أرض الميعاد . ودونها لقاء الجبارين !

هذه هي نهاية المطاف بموسى عليه السلام . نهاية الجهد الجهيد . والسفر الطويل . واحتمال الرذالات والانحرافات والالتواءات من بني إسرائيل !

نعم ها هي ذي نهاية المطاف نكوصاً عن الأرض المقدسة ، وهو معهم على أبوابها . وخروجاً على ميثاق الله . . فماذا يصنع موسى ؟ وبمن يستجير ؟

{ قال : رب إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي . فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين } .

دعوة فيها الألم . وفيها الالتجاء . وفيها الاستسلام . وفيها - بعد ذلك - المفاصلة والحسم والتصميم !

هذا هو أدب النبي . وهذه هي خطة المؤمن . وهذه هي الأصرة التي يجتمع عليها أو يتفرق المؤمنون . . لا جنس . لا نسب . لا قوم . لا لغة . لا تاريخ . لا وشيجة من كل وشائج الأرض ؛ إذا انقطعت وشيجة العقيدة ؛ وإذا اختلف المنهج والطريق . واستجاب الله لنبيه . وقضى بالجزاء العدل على الفاسقين .

قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين}

وهكذا أسلمهم الله - وهم على أبواب الأرض المقدسة - للتيه؛ وحرّم عليهم الأرض التي كتبها لهم . . حرّمها على هذا الجيل منهم حتى تثبت نابتة جديدة؛ وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل . جيل يعتبر بالدرس ، وينشأ في خشونة الصحراء وحريتها صلب العود . . جيل غير هذا الجيل الذي أفسده الذل والاستعباد والطغيان في مصر ، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل! والذل والاستعباد والطغيان يفسد فطرة الأفراد كما يفسد فطرة الشعوب .

ويتركهم السياق هنا - في التيه - لا يزيد على ذلك . . وهو موقف تجتمع فيه العبرة النفسية إلى الجمال الفني ، على طريقة القرآن في التعبير . (١)

كيف دخل بنو إسرائيل أرض كنعان ؟

بعد أربعين عاما من التيه مات فيها الجيل الجبان ونشأ جيل آخر مجاهد دخل بنو إسرائيل أرض فلسطين بقيادة يوشع بن نون فتى موسى ، الذي قسّم ما أخذه من أرض فلسطين على أسباط بني إسرائيل ، وجعل على كل سبط منهم قاضيا يحكمهم ، واستمر هذا العهد لأكثر من مائتي سنة فيما يذكر اليهود ، وكانوا طيلة تلك الفترة في حال صراع مستمر مع الفلسطينيين أصحاب الأرض الأصليين .

وفي إحدى المعارك هزم الفلسطينيون بني إسرائيل هزيمة منكرة وطردوهم من ديارهم وأسروا أبناءهم وأخذوا منهم التابوت الذي كان فيه بعض آثار موسى وهارون ، كان هذا قمة المذلة لهم لذا دعوا الله تعالى أن يرسل لهم ملكا ليقودهم للقتال لاستعادة ملكهم ، وليعزوا بعد ذل ، ويقص لنا القرآن الكريم هذه المرحلة من قصة بني إسرائيل فيقول تعالى :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَّهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلَكًا يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) } وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٢ ص ٣٤٤ - ٣٤٦

عَلَيْهِمْ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَعْدَامُنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَرَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَاتَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ } (البقرة : ٢٤٦ : ٢٥٢)

لقد اجتمع الملاء من بني إسرائيل ، من كبارائهم وأهل الرأي فيهم إلى نبي لهم . وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكاً يقاتلون تحت إمرته { في سبيل الله } . . وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال ، وأنه في { سبيل الله } يشي بانتفاضة العقيدة في قلوبهم ، ويقظة الإيمان في نفوسهم ، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق ، وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل؛ ووضوح الطريق أمامهم للجهاد في سبيل الله .

وقد أراد نبيهم أن يستوثق من صدق عزيمتهم ، وثبات نيتهم ، وتصميمهم على النهوض بالتبعة الثقيلة ، وجدّهم فيما يعرضون عليه من الأمر :

{ قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ! } .

ألا ينتظر أن تتكلوا عن القتال إن فرض عليكم ؟ فأنتم الآن في سعة من الأمر . فأما إذا استجبت لكم ، فتقرر القتال عليكم فتلك فريضة إذن مكتوبة؛ ولا سبيل بعدها إلى النكول عنها . . إنها الكلمة اللائقة بنبي ، والتأكد اللائق بنبي . فما يجوز أن تكون كلمات الأنبياء وأوامرهم موضع تردد أو عبث أو تراخ .

وهنا ارتفعت درجة الحماسة والفورة؛ وذكر الملاء أن هناك من الأسباب الحافزة للقتال في سبيل الله ما يجعل القتال هو الأمر المتعين الذي لا تردد فيه :

{ قالوا : وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ } .

ونجد أن الأمر واضح في حسهم ، مقرر في نفوسهم . . إن أعداءهم أعداء الله ولدين الله . وقد أخرجوهم من ديارهم وسبوا أبناءهم . فقتالهم واجب ؛ والطريق الواحدة

التي أمامهم هي القتال؛ ولا ضرورة إلى المراجعة في هذه العزيمة أو الجدل . ولكن هذه الحماسة الفائرة في ساعة الرخاء لم تدم . ويجعل السياق بكشف الصفحة التالية : { فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم } . .

وهنا نطلع على سمة خاصة من سمات إسرائيل في نقض العهد ، والنكث بالوعد ، والتقلت من الطاعة ، والنكوص عن التكليف ، وتفرق الكلمة ، والتولي عن الحق البين . . ولكن هذه كذلك سمة كل جماعة لا تتضح تربيتها الإيمانية؛ فهي سمة بشرية عامة لا تغير منها إلا التربية الإيمانية العالية الطويلة الأمد العميقة التأثير . وهي - من ثم - سمة ينبغي للقيادة أن تكون منها على حذر ، وأن تحسب حسابها في الطريق الوعر ، كي لا تفاجأ بها ، فيتعاضمها الأمر! فهي متوقعة من الجماعات البشرية التي لم تخلص من الأوشاب ، ولم تصهر ولم تطهر من هذه العقابيل .

{ وقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً . قالوا : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال؟ قال : إن الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة في العلم والجسم . والله يؤتي ملكه من يشاء . والله واسع عليم } . .

وفي هذه اللجاجة تتكشف سمة من سمات إسرائيل التي وردت الإشارات إليها كثيرة في هذه السورة . . لقد كان مطلبهم أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه . ولقد قالوا : إنهم يريدون أن يقاتلوا { في سبيل الله } . فها هم أولاء يغضون رعوسهم ، ويلوون أعناقهم ، ويجادلون في اختيار الله لهم كما أخبرهم نبيهم؛ ويستتكرون أن يكون طالوت - الذي بعثه الله لهم - ملكاً عليهم . لماذا ؟ لأنهم أحق بالملك منه بالوراثة . فلم يكن من نسل الملوك فيهم ! ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرر التغاضي عن أحقية الوراثة ! . . وكل هذا غبش في التصور ، كما أنه من سمات بني إسرائيل المعروفة . .

ولقد كشف لهم نبيهم عن أحقيته الذاتية ، وعن حكمة الله في اختياره :

{ قال إن الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة في العلم والجسم . والله يؤتي ملكه من يشاء . والله واسع عليم } . .

إنه رجل قد اختاره الله . . فهذه واحدة . . وزاده بسطة في العلم والجسم . . وهذه أخرى . . والله { يؤتي ملكه من يشاء } . . فهو ملكه ، وهو صاحب التصرف فيه ، وهو يختار من عباده من يشاء .

{ والله واسع عليم } . . ليس لفضله خازن وليس لعطائه حد . وهو الذي يعلم الخير ، ويعلم كيف توضع الأمور في مواضعها . هي أمور من شأنها أن تصحح

التصور المشوش ، وأن تجلو عنه الغبش . . ولكن طبيعة إسرائيل - ونبيها يعرفها - لا تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها . وهم مقبلون على معركة . ولا بد لهم من خارقة ظاهرة تهز قلوبهم ، وتردها إلى الثقة واليقين :

{ وقال لهم نبيهم : إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت ، فيه سكينه من ربكم ، وبقيّة مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة . إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين } . .

ويبدو من السياق أن هذه الخارقة قد وقعت ، فانتهى القوم منها إلى اليقين .

ثم أعد طالوت جيشه ممن لم يتولوا عن فريضة الجهاد ، ولم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم من أول الطريق . . والسياق القرآني على طريقته في سياقة القصص يترك هنا فجوة بين المشهدين . فيعرض المشهد التالي مباشرة وطالوت خارج بالجنود : { فلما فصل طالوت بالجنود قال : إن الله مبتليكم بنهر . فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فإنه مني - إلا من اغترف غرفة بيده . فشرّبوا منه إلا قليلاً منهم } .

هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل . . إنه مقدم على معركة؛ ومعه جيش من أمة مغلوبة ، عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة . وهو يواجه جيش أمة غالبية فلا بد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة . هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة . الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات ، وتصمد للحرمان والمشاق ، وتستعلي على الضرورات والحاجات ، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها ، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء . . فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه ، وصموده وصبره : صموده أولاً للرغبات والشهوات ، وصبره ثانياً على الحرمان والمتاعب . . واختار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات عطاش . ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه ، ويؤثر العافية . . وصحت فراسته :

{ فشرّبوا منه إلا قليلاً منهم } شرّبوا وارتوا . فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده ، تبل الظمأ ولكنها لا تشي بالرغبة في التخلف! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم . وهنا كانت التجربة قد غربلت جيش طالوت - إلى حد - ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد :

{ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده }

لقد صاروا قلة وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته : بقيادة جالوت . إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم . ولكنهم هنا أمام الواقع الذي يروونه بأعينهم فيحسون

أنهم أضعف من مواجهته . إنها التجربة الحاسمة . تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور . وهذه لا يصمد لها إلا من اكتمل إيمانهم ، فاتصلت بالله قلوبهم؛ وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع إيمانهم ، غير الموازين التي يستمدها الناس من واقع حالهم!

وهنا برزت الفئة المؤمنة . الفئة القليلة المختارة . والفئة ذات الموازين الربانية :

{ قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . والله مع الصابرين } . .

هكذا . . { كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة } . . بهذا التكثير . فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقو الله . القاعدة : أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار . ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى؛ ولأنها تمثل القوة الغالبة . قوة الله الغالب على أمره ، القاهر فوق عباده ، محطم الجبارين ، ومخزي الظالمين وقاهر المتكبرين .

وهم يكلون هذا النصر لله : { بإذن الله } . . ويعللونه بعلته الحقيقية : { والله مع الصابرين } . . فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل . .

ونمضي مع القصة . فإذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله ، التي تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء ، وتستمد قوتها كلها من إذن الله ، وتستمد يقينها كله من الثقة في الله ، وأنه مع الصابرين . . إذا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة ، الثابتة ، التي لم تزلزلها كثرة العدو وقوته ، مع ضعفها وقلتها .. إذا هذه الفئة هي التي تقرر مصير المعركة . بعد أن تجدد عهدها مع الله ، وتتجه بقلوبها إليه ، وتطلب النصر منه وحده ، وهي تواجه الهول الرهيب

{ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا أفرغ علينا صبراً ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين .

أما في هذا الموضع فإن السياق يتجه إلى هدف آخر من وراء القصة جميعاً . . وحين ينتهي إلى هذه الخاتمة ، يعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية ، وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية . . حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اضطراع تلك القوى . . إنها ليست المغامرات والأسلاب ، وليست الأمجاد والهالات . . إنما هو

الصالح في الأرض ، وإنما هو التمكين للخير بالكفاح مع الشر : { ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . ولكن الله ذو فضل على العالمين } .

لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتغن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض . ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة ، لتتعلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع ، فتتفرض عنها الكسل والخمول ، وتستجيش ما فيها من مكونات مذخورة ، وتظل أبداً يقظة عاملة ، مستتبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة . . وفي النهاية يكون الصالح والخير والنماء . . يكون بقيام الجماعة الخيرة المهيمنة المتجردة . تعرف الحق الذي بينه الله لها . وتعرف طريقها إليه واضحاً . وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض . وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل ، وإلا أن تحتل في سبيله ما تحتل في الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه . .

وهنا يمضي الله أمره ، وينفذ قدره ، ويجعل كلمة الحق والخير والصالح هي العليا ، ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية ، التي استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمها . وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة .

ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب في النهاية وتتصدر . ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض ، وتمكين الصالح في الحياة . إنها تتصدر لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار . (١)

مملكة داود وسليمان

وفي هذه الفترة التي قامت فيها الفئة المؤمنة بشرع الله واستقامت على منهجه أقيمت مملكة بني إسرائيل على جزء من أرض فلسطين في عهد داود وسليمان عليهما السلام .

{ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } (النمل : ١٩) .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه داود وابنه سليمان، عليهما من الله السلام، من النعم الجزيلة، والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٥٣ بتصرف .

سعادة الدنيا والآخرة، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين؛ ولهذا قال: { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ } (النمل : ١٥)

أن الله تعالى قد أعطى - بفضلله وإحسانه - داود وسليمان عليهما السلام نعمًا عظيمة ، على رأسها نعمة النبوة ، والملك ، والعلم النافع .

وأنهما قد قابلا هذه النعم بالشكر لله تعالى واستعمالها فيما خلقت له .

ونرى ذلك في قوله تعالى على لسان سليمان : { رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } وفي قوله سبحانه : { هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ } (النمل : ٤٠) .

تقطيع الله تعالى بني إسرائيل في الأرض أمما

ولكن بني إسرائيل - كعادتهم دائما - عادوا إلى الفساد والعصيان بعد نبي الله سليمان فسلط عليهم من قهرهم وشتت جمعهم .

{ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفِيَاةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } (الأعراف : ١٦٧ ، ١٦٨)

والمعنى : واذكر يا محمد وقت أن أعلم الله تعالى هؤلاء اليهود وأسلافهم بأنهم إن غيروا وبدلوا ولم يؤمنوا بأنبيائهم ، ليسلطن عليهم إلى يوم القيامة من يذيقهم سوء العذاب كالإذلال وضرب الجزية وغير ذلك من صنوف العذاب إن ربك لسريع العقاب لمن أقام على الكفر ، وجانب طريق الحق ، وإنه لغفور رحيم لمن تاب وآمن وعمل صالحاً . وهذا من باب قرن الترغيب بالترهيب حتى لا ييأس العاصي من رحمة الله بسبب ذنوبه السابقة إذا هو أقبل على الله بالتوبة والعمل الصالح كما قال تعالى : { وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى }

(طه : ٨٢)

ولقد يبدو للبعض أن هذا الوعيد لليهود قد توقف بسبب ما نرى لهم الآن من دولة وصوله ولكن الذي نعتقده أن هذا الوعيد ما توقف مع ما لهم من دولة ، فإنهم ما زالوا محل احتقار الناس وبغضهم ، وحتى الدول التي تتناصرهم إنما تتناصرهم لأن السياسة تقتضى ذلك .

وما قامت لليهود تلك الدولة إلا لأن المسلمين قد فرطوا في حق خالقهم ، وفي حق أنفسهم ، ولم يأخذوا بالأسباب التي شرعها الله لهم لحرب أعدائهم فكانت النتيجة أن أقام اليهود دولة لهم في قلب البلاد الإسلامية وعندما يعود المسلمون إلى الأخذ التام الكامل بتعاليم دينهم وإلى مباشرة الأسباب التي شرعها الله مباشرة سليمة ، عندما يفعلون ذلك تعود إليهم عزتهم المسلوبة وكرامتهم المغصوبة .

وصدق الله إذ يقول : { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } (الأنفال : ٥٣)

هذا وقوله تعالى : { وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا } إخبار عن عقوبة أخرى من عقوباتهم المتنوعة بسبب كفرهم وجحودهم ، وتتمثل هذه العقوبة في تفريقهم في الأرض ، وتمزيقهم شر ممزق حتى لا تكون لهم شوكة .

أن هؤلاء اليهود قد مزقناهم في الأرض شر ممزق بسبب عصيانهم وفسوقهم ، وصيرناهم فرقا متقطعة الأوصال ، مشتتة الأهواء . وقوله { مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ } بيان حالهم .

أى : من هؤلاء اليهود قلة آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فصلح حالها ، وحسنت عاقبتها ، ومنهم كثرة منحطة عن رتبة أولئك المؤمنين الصالحين ، بسبب فسوقهم عن أمر الله ، وانتهاكهم لحرماته .(١)

ويبين الله تعالى عقاب الله تعالى لبني إسرائيل بسبب فسادها بأن بعث عليها من هدم عليهم مملكتهم ، وشردهم .

{ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا } (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا {٥} ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا {٦} إِنَّ أَحْسَنْتَ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا {٧} عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا }

(الإسراء : ٤ - ٨)

ولقد قضى الله لبني إسرائيل في الكتاب الذي آتاه لموسى أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ، وأنهم سيعلمون في الأرض المقدسة ويسيطرون . وكلما ارتفعوا فاتخذوا

(١) د. محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ص ١٧٢١

الارتفاع وسيلة للإفساد سلط عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرماهم ويدمرهم
تدميرا :

{ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار ،
وكان وعداً مفعولاً } .

فهذه هي الأولى : يعلنون في الأرض المقدسة ، ويصبح لهم فيها قوة وسلطان ،
يفسدون فيها فيبعث الله عليهم عبداً من عباده أولي بأس شديد ، وأولي بطش وقوة ،
يستبيحون الديار ، ويروحون فيها ويغدون باستهتار ، ويطؤون ما فيها ومن فيها بلا
تهيب { وكان وعداً مفعولاً } لا يخلف ولا يكذب .

حتى إذا ذاق بنو إسرائيل ويلات الغلب والقهر والذل؛ فرجعوا إلى ربهم ، وأصلحوا
أحوالهم وأفادوا من البلاء المسلط عليهم . وحتى إذا استعلى الفاتحون وغرتهم قوتهم ،
فطغوا هم الآخرون وأفسدوا في الأرض ، أدال الله للمغلوبين من الغالبين ، ومكن
للمستضعفين من المستكبرين : { ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين
وجعلناكم أكثر نفيراً } . .

ثم تتكرر القصة من جديد! وقبل أن يتم السياق بقية النبوءة الصادقة والوعد المفعول
يقرر قاعدة العمل والجزاء : { إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها } القاعدة
التي لا تتغير في الدنيا وفي الآخرة؛ والتي تجعل عمل الإنسان كله له ، بكل ثماره
ونتائجه . وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل ، منه تنتج ، وبه تتكيف؛ وتجعل الإنسان
مسؤولاً عن نفسه ، إن شاء أحسن إليها ، وإن شاء أساء ، لا يلومن إلا نفسه حين
يحق عليه الجزاء .

فإذا تقررت القاعدة مضى السياق يكمل النبوءة الصادقة :

{ فإذا جاء وعد الآخرة ليسوعوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ،
وليبتروا ما علوا تنبيراً } . .

ويحذف السياق ما يقع من بني إسرائيل بعد الكرة من إفساد في الأرض ، اكتفاء
بذكره من قبل : { لتفسدن في الأرض مرتين } ويثبت ما يسلطه عليهم في المرة
الآخرة : { فإذا جاء وعد الآخرة ليسوعوا وجوهكم } بما يرتكبونه معهم من نكال يملأ
النفوس بالإساءة حتى تفيض على الوجوه ، أو بما يجبهون به وجوههم من مساءة
وإذلال . ويستبيحون المقدسات ويستهيئون بها : { وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول
مرة } ويدمرون ما يغلبون عليه من مال وديار {وليبتروا ما علوا تنبيراً} . . وهي

صورة للدمار الشامل الكامل الذي يطغى على كل شيء ، والذي لا يبقى على شيء

ولقد صدقت النبوءة ووقع الوعد ، فسلط على بني إسرائيل من قهرهم أول مرة ، ثم سلط عليهم من شردهم في الأرض ، ودمر مملكتهم فيها تدميراً .

ولا ينص القرآن على جنسية هؤلاء الذين سلطهم على بني إسرائيل ، لأن النص عليها لا يزيد في العبرة شيئاً . والعبرة هي المطلوبة هنا . وبيان سنة الله في الخالق هو المقصود .

ويعقب السياق على النبوءة الصادقة والوعد المفعول ، بأن هذا الدمار قد يكون طريقاً للرحمة : { عسى ربكم أن يرحمكم } إن أفدتم منه عبرة .

فأما إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضية : { وإن عدتم عدنا } . .

ولقد عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها . ثم عادوا إلى الإفساد فسلط عليهم عباداً آخرين ، حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم « هتلر » .

ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة « إسرائيل » التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات . وليسلمن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، تصديقاً لوعده الله القاطع ، وفاقاً لسنته التي لا تتخلف . وإن غداً لناظره قريب! (١)

القرآن الكريم وأساطير اليهود

لقد طورت الصهيونية كثيراً من المفاهيم القومية ذات الطابع العنصري ، ومن هذه المفاهيم ما استمدته من تورااة اليهود مثل : أسطورة شعب الله المختار ، وأسطورة أرض الميعاد ، وأسطورة الخلاص الإلهي لليهود في آخر الزمان ...

ومنها أساطير سياسية أضافتها الصهيونية وجعلتها من المقدسات يحرم المساس بها وهي : أساطير : البقاء والاستمرار اليهوديان ، وعداء الأغيار الأزللي لليهود ، أرض بلا شعب لشعب بلا أرض ...

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٥ ص ٧ ، ٨

وهذه الأساطير سواء أكانت دينية أم سياسية لم تتجلى في أقوال الصهاينة فحسب بل تجلت في ممارستهم العملية .

وسنكتفي في هذا المقام بعرض موجز لمفهوم القرآن الكريم لما ورد في تورا اليهود من أساطير : الأرض الموعودة ، والاختيار ، والخلاص .

أولا : أسطورة الأرض الموعودة

إن من العقائد الإيمانية المؤكدة في كل الأديان السماوية أن الله تعالى هو خالق السموات والأرض وما فيهن من مخلوقات وعوالم وكائنات ما علمنا منها وما جهلنا ، وأنه تعالى المتصرف في ملكه لا سلطان لأحد عليه ، ولا يشاركه في ملكه أحد .

{ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (آل عمران : ١٨٩)

أي : هو الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها القادر عليها، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير، ولا عدل، ولا والد ولا ولد ولا صاحبة، فلا إله غيره ولا رب سواه (١).

قال الله تعالى : { لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ } ولم يقل ومن فيهن فغلب غير العقلاء على العقلاء ، والسبب فيه التنبيه على أن كل المخلوقات مسخرون في قبضة قهره وقدرته وقضائه وقدره ، وهم في ذلك التسخير كالجماادات التي لا قدرة لها وكالبهائم التي لا عقل لها ، فعلم الكل بالنسبة إلى علمه كلا علم ، وقدرة الكل بالنسبة إلى قدرته كلا قدرة (٢).

إذن الأرض أرض الله وليس لجنس أو لقوم أو لشعب أو لأي كائن من كان شيء فيها . والله تعالى كتب في كتبه المقدسة التي أنزلها للناس أن الأرض يورثها لمن يشاء من عباده الصالحين تفضلا منه جل وعلا .

ذكر الله تعالى هذا في كتبه المقدسة جميعها : التوراة المُنزَّلة على موسى ، الزبور المُنزَّل على داود ، والإنجيل المُنزَّل على عيسى ، والقرآن الكريم المُنزَّل على محمد صلى الله عليهم أجمعين .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٣٦

(٢) فخر الدين الرازي " مفاتيح الغيب " ج ٦ ص ٢٠٦

{ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } (الحج : ١٠٥-١٠٧)

واختلف المفسرون في تفسير المراد بالزبور ، والذكر . فمن المفسرين من جعل الزبور لفظ عام يشمل الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه جميعاً . ومنهم من جعله لفظ خاص بكتاب داود فحسب .

أما الذكر فقد وسَّع بعض المفسرين معناه فجعله أم الكتاب عند الله ، ومنهم من قصره على التوراة كتاب موسى .

وسواء أكان المقصود بالزبور والذكر بمعناهما الخاص كتابي (داود ، وموسى) أو بمعناهما العام الذي يشمل كل الكتب المنزلة على جميع الأنبياء فإنه من المؤكد أن وحي الله تعالى واحد في أصله لكل الأنبياء والمرسلين ، وليس هناك تناقض قط فيه ، فالمرسل واحد جل في علاه .

{ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا } (النساء : ١٦٣) .

يقول تعالى : { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } (الحج : ١٠٥) .

فما هي هذه الوراثة ؟ ومن هم الصالحون المستحقون ميراث الأرض ؟

المستحقون لميراث الأرض

إن موسى عليه السلام أكد لبني إسرائيل أن الله تعالى يورث الأرض لمن يشاء من عباده الصالحين لعمارتها .

يقول تعالى : { قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } (الأعراف : ١٢٨) .

فليس هناك عهد إلهي خاص بجنس دون جنس أو أمة دون أمة كما ادعت اليهود إنما الأرض لله يورثها من يشاء من عباده وفقاً لسنة في خلقه .

ولقد أكد الله تعالى لبني إسرائيل هذا مرة ثانية بعد موسى في الزبور المنزل على داود صاحب أول مملكة لبني إسرائيل في الأرض المقدسة .

{ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ }

(الحج : ١٠٥)

فالصالحون لعمارة الأرض هم وراثتها ، هذه هي سنة الله في خلقه التي لا استثناء فيها ولا محاباة .

فعندما آمن المسلمون بالله تعالى وأعدوا ما استطاعوا من قوة نصرهم الله تعالى في مواطن كثيرة ، وعندما خالفوا وأمر النبي هزموا في أحد ، وكذلك عندما أعجب كثير من المسلمين بكثرتهم كادوا يهزمون في غزوة حنين .

{ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ } (التوبة: ٢٥) .

إذن ليس هناك عهد أبدي بتملك أرض مقدسة أو غير مقدسة لشعب بسبب جنسه لا بسبب عمله وصلاحه كما قالت تورااة اليهود .

ثانيا : أسطورة شعب الله المختار

إن الحقيقة الإيمانية التي جاءت في الكتب المقدسة وعلى لسان جميع الأنبياء والرسل أنه ليس بين الله تعالى و شعب من الشعوب صلة نسب – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا – كما أنه ليس هناك شعب مختار لجنسه ، و إنما هناك مؤمنون صالحون ، وهناك كفار مفسدون ، وخلق بينهم كثيرون .

فجميع الشعوب والقبائل متساوية في الخلق ، ولا يتفاضلون إلا بالتقوى والعمل الصالح . وهذه التقوى علمها عند الله فلا ينبغي أن يزكي إنسان أو شعب نفسه فالله تعالى هو أعلم بمن اتقى .

{ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى } (النجم : ٣٢)

أساس التفاضل بين الناس

إن معيار التفاضل في الإسلام يستطيع الارتقاء إليه كل البشر ، ولا يقسم الناس إلى طبقات يعلو بعضها بعضا ، وهو معيار يدفع إلى الرقي والسمو بالإنسان .

إن التقوى معيار الكرامة الإنسانية عند الله عز وجل ، ومع ذلك فهي معيار الصلاح في الدنيا ، وهو معيار حقيقي وعملي ؛ إذ إن صلاح الإنسان في دنياه ، يجعله أفضل لنفسه وللمجتمع الذي يعيش فيه ، من غيره الذي لا يفيد نفسه ولا مجتمعه بشيء .

لقد جعل الله تعالى التقوى مقياس التفاضل بين البشر جميعا فلا فضل لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } (الحجرات : ١٣)

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوباً، وهي أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعوائل والأفخاذ وغير ذلك.

فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ .

وقوله: { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب.

وهكذا تسقط جميع الفوارق ، وتسقط جميع القيم ، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة ، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر ، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان .

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس . ويظهر سبب ضخم واضح للآفة والتعاون : ألوهية الله للجميع ، وخلقهم من أصل واحد . كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته : لواء التقوى في ظل الله .

وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس ، والعصبية للأرض ، والعصبية للقبيلة ، والعصبية للبيت . وكلها من الجاهلية وإليها ، تنزى بشتى الأرياء ، وتسمى بشتى الأسماء . وكلها جاهلية عارية من الإسلام!

قال رسول الله ﷺ : " كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب . ولينتهين قوم يفخرون بأبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان "

وقال ﷺ عن العصبية الجاهلية : " دعوها فإنها منتنة "

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي . المجتمع الإنساني العالمي ، الذي تحاول البشرية في خيالها المخلق أن تحقق لوناً من ألوانه فتخفق ، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم . . الطريق إلى الله . . ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمة . . راية الله . . أن يستمد الناس قيمهم وموازنهم من

السماء ، طلقاء من قيم الأرض وموازينها المنبثقة من واقعهم كله . . وهذا هو الأمر العظيم .

إن الميزان الذي أنزله الله للناس مع الرسل ، ليقوموا به القيم كلها ، هو { إن أكرمكم عند الله أتقاكم } هذه هي القيمة الوحيدة التي يرجح بها وزن الناس أو يشيل! وهي قيمة سماوية بحتة ، لا علاقة لها بمواضعات الأرض وملابساتها إطلاقاً . (١)

هل اليهود هم الأتقى ليكونوا هم الأكرم عند الله ؟

لا تزعم اليهودية أن لديها هداية تقدمها للبشر ، فهي ديانة يغلب عليها الطابع العنصري ، و " الله " في دين اليهود ليس رب العالمين ، ولكنه رب إسرائيل . والآخرة عند اليهود ليست هي ملكوت السماء عند النصارى ، ولا جنة الخلد عند المسلمين ، إنما هي ملك إسرائيل .

والعهد القديم " كتاب اليهود المقدس الذي يضم أسفار التوراة وملحقاتها يدور جلّه حول تاريخ إسرائيل ، وأحلام إسرائيل .

التوحيد الذي دعا إليه موسى عليه السلام ضاع في هذا الكتاب الذي شوه صورة الألوهية ، وأضفى على الإله من نقائص البشر ، من الجهل والخوف والحسد ، والضعف ، يلحظه كل قارئ للتوراة .

والأنبياء الذين جعلهم الله هُداةً ومعلمين ، لُوِّثت سيرتهم وأُصِّقت بهم التهم ، في هذا الكتاب ، فلم يعودوا ليصلحوا أسوة للناس . ! (٢)

صفات بني إسرائيل كما جاءت في القرآن الكريم

يصف القرآن الكريم اليهود وأسلافهم - أخلاقيا لا عرقيا - من بني إسرائيل بأنهم يسعون في الأرض فسادا ، وأنهم دائماً حريصون على إثارة الفتن وإشعال الحروب ، وأنهم دائماً في عداوة ليس فقط لغيرهم إنما أيضاً لبعضهم البعض وهذا دأبهم إلى يوم القيامة .

ويرجع فسادهم وإفسادهم إلى عداوتهم لله ورسله وخروجهم الدائم على شريعته وصدق الله العظيم حين يقول فيهم :

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٧ ص ٥

(٢) د. يوسف القرضاوي " الإسلام حضارة الغد " نقلا عن الشبكة الإسلامية . ١ / ١ / ٢٠٠٢

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } (المائدة : ٦٤)

فهم دائما لا يحبون إلا أنفسهم ولا يتبعون إلا هواهم مما جعلهم يكذبون فريقا من الرسل ويقتلون الفريق الآخر :

{ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ } (البقرة : ٨٧)

وأكثرهم ناقضون لعهود الله وعهود البشر .

{ أَوْ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } (البقرة : ١٠٠)
وكثير منهم حريصون على الحياة على أية صورة وأية حال حتى ولو كانت حياة مذلة وقهر ، المهم أن يعيشوا ويتمتعوا كالإنعام .

{ وَلَنَجْذِئَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضِيهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } (البقرة : ٩٦)
{ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } (الفرقان : ٤٤)

مما جعل الله تعالى يحرم عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم وصددهم عن سبيل الله ، وأكلهم الربا .

{ فَيُظْلَمُ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا } {١٦٠} وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ } (النساء : ١٦٠ ، ١٦١)

وعاقبهم الله تعالى بأن مسح قوما منهم قردة وخنازير بسبب فسادهم وطغيانهم وفسقهم . { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } (البقرة : ٦٥)

{ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } (الأعراف : ١٦٦)

هذا عن تاريخ بني إسرائيل كما جاء في القرآن الكريم فماذا عن قصة النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود ؟ هذا ما نعرفه في الفصل التالي .

ثالثا : أسطورة الخلاص في نهاية الزمان

هناك فرق جوهري بين نهاية التاريخ عند أهل الكتاب ، ويوم القيامة عند المسلمين ، فنهاية التاريخ عند أهل الكتاب تتحقق داخل الزمان الإنساني وعلى الأرض، حين يؤسس الإنسان الفردوس (مملكة صهيون على يد الماشيخ الذي هو من نسل داود بالنسبة لليهود ، ومملكة المسيح على يد المسيح بن مريم بالنسبة للمسيحيين) داخل الزمان، فهو فردوس مادي أرضي. يتم على أرضنا هذه وليس في الدار الآخرة .

فالمسيحيون يعتقدون أن المسيح سيرجع بعد ألف سنة ثم يحكم العالم ألف سنة، وعلى هذه العقيدة اجتمعت آمالهم واتجهت أنظارهم سنة ١٠٠٠ ميلادية ولكن المسيح لم يظهر فهدأت المسألة وتلاشت في الواقع لكنها بقيت في الأحلام ، ولما شارف القرن العشرون على البزوغ أي قرب سنة ١٩٠٠ بدأت الدعوات تظهر من جديد واعتقدوا أن المسيح إن لم يظهر في أول القرن العشرين فسيظهر في آخره أي عام ٢٠٠٠ ولم يظهر المسيح في آخره الذي ظهر هو المسيح الدجال المسمى الصهيونية العالمية .

وهذا خلاف ما يؤمن به المسلمون من أن الدنيا دار ابتلاء وفناء ، والآخرة دار خلود وجزاء .

يقول تعالى مخبرا عن حقايرة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو ولعب: { وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ } أي: الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد . (١)

(١) لمزيد من التفاصيل حول الأساطير الصهيونية الرجوع إلى كتاب " الدين والسياسة والنبوءة ، بين الأساطير الصهيونية والشرائع السماوية " للمؤلف .